



السلسلة: الظروف الماديّة والفكريّة للعلوم في المدينة الإسلامية

الفصل 2 | نقل التراث العلميّ اليونانيّ إلى العربيّة وترجمته

المقال 9 | حلم المأمون: أسطورة اختُلقت لتفسير حقيقة



لماذا ظلّ المؤرّخون يروون حكاية لا يكاد أحدهم يصدّقها؟

في ليلةٍ من ليالي بغداد، يروي ابن النديم في «الفهرست»، رأى الخليفة العبّاسيّ المأمون نفسه في منامٍ يحادث أرسطو. وبحسب هذه الرواية، كان هذا الحلم من أخصّ الأسباب التي حدثت بالمأمون إلى مكاتبة ملك الروم، يطلب إذنه بإرسال بعثةٍ تنتقي ما تشاء من الكتب القديمة المذخورة في بلاده.

من الحلم إلى القرار السياسيّ

يروى ابن النديم أنّ ملك الروم تردّد أوّل الأمر، ثمّ أذن. فسير المأمون جماعةً من العلماء والمترجمين، منهم الحجاج بن مطر وابن البطريق وسلم (أحد أعضاء بيت الحكمة)، لينتقوا ما شاؤوا من كتب الفلسفة والهندسة والموسيقى والحساب والطبّ، ويحملوها إلى بغداد. ويذكر الفصل أنّ تقليدًا شبيهًا تكرر بعده: فقد أوفد بنو موسى أنفسهم، من بعد، المترجم الشهير حنين بن إسحاق في مهمّة مماثلة، ويُقال إنّ محمّدًا، أكبر بني موسى، شارك هو نفسه في بعثةٍ إلى بلاد الروم.

حلمٌ حقيقيّ أم أسطورة؟

يتوقّف راشد عند هذه الرواية ليضعها في نصابها، فيصفها بأنّها أسطوريّةٌ على الأرجح، غير أنّه يرى أنّ قيمتها التاريخيّة لا تكمن في وقوعها على ظاهرها، بل في كشفها عن وعي المؤرّخين والبليوغرافيين القدامى أنفسهم بأنّ حركة الترجمة في عهد المأمون كانت مختلفةً نوعًا عن كلّ ما سبقها.





فما الذي سبق هذا الحلم أصلاً؟

فالمؤرّخون القدامى أنفسهم لم يكونوا يجهلون أنّ حركة الترجمة أقدم من عهد المأمون (198 - 218هـ / 813 - 833م) بأمدٍ طويل. فقبله بقرنٍ كامل، طلب خالد بن يزيد، حفيد مؤسس الدولة الأموية، من رجلٍ يُدعى إسطفانوس أن يترجم له من القبطية واليونانية كتباً في الكيمياء، وهي الترجمة التي يصفها ابن النديم بأنها «أول ترجمة في الإسلام من لغةٍ إلى أخرى». وفي عهد هشام بن عبد الملك، عُرب الديوان نفسه من اليونانية. وفي أواخر القرن نفسه، نقل ماسرجويه إلى العربية مختصراً طبياً لأهرن. فحركة الترجمة، إذن، كانت قد بدأت فعلاً، تلبيةً لحاجاتٍ عملية مباشرة، قبل أن يُولّد المأمون أصلاً.

فما الذي تغيّر فعلاً في عهده؟

والحقيقة المؤثقة، بمعزلٍ عن الحلم، تكفي وحدها لتعليل هذه المكانة الأسطورية: ففي عهد المأمون تحوّلت الترجمة من نشاطٍ فرديٍّ متفرّق إلى مهنةٍ ومؤسسةٍ بالمعنى الكامل للكلمة. أنشئ «بيت الحكمة»، الذي ضمّ فرقاً كاملةً من الفلكيين والمترجمين والرياضيين، من أمثال الخوارزمي والحجاج بن مطر وبني موسى. وبدلاً من ترجماتٍ فرديةٍ متناثرة تلبي حاجةً عمليةً بسيطة، كما كان الحال في العصر الأموي، غدت الترجمة عملاً منظماً يُموّل رسمياً؛ وخير شاهدٍ على هذا التسارع أنّ عقدي حكمه وحدهما أثمرتا ترجمتين كاملتين منفصلتين لـ«المجسطي» لبطليموس، وهو أضخم كتب الفلك القديم.

تحذيرٌ من قراءة الحلم على ظاهره

غير أنّ الحذر هاهنا واجب: فالحلم، إن صحّ رمزاً لا حرفاً، لا يعني أنّ «الفكر سبق العمل»، بل يجسّد لحظة تكثيفٍ ودعمٍ رسميٍّ ضخمتٍ وتيرة مسارٍ كان جارياً بالفعل: بحثٌ علميٌّ حيّ كان يحتاج مزيداً من النصوص ليستمرّ، فجاء دعم المأمون ليلبي حاجةً قائمة، لا ليخترع حاجةً من عدم. وهذا بعينه ما تؤكدُه المقالات التالية من هذه السلسلة، في قصّة كتاب «المخروطات» لأبلونيوس، وفي رحلة حنين بن إسحاق بحثاً عن كتاب جالينوس.





المصدر: مقتبسٌ ومُعَدُّ عن فصل «نقل التراث العلميّ اليونانيّ إلى العربيّة وترجمته»، بقلم رشدي راشد، ضمن المجلد الثالث من موسوعة «تاريخ العلم» (الموسوعة الإيطاليّة لتاريخ العلوم الإسلاميّة)، الصادرة عن معهد الموسوعة الإيطاليّة (تريكاني)، سنة 2002، بإشراف رشدي راشد، ص 1-36. وهو جزء من الموسوعة التي تُعدّ دار الرّبان للنشر حاليّاً لترجمتها ونشرها بالعربيّة كاملة.



<https://arsco.org/>

